الفصل الثالث

ما بين خطابي العلم والدّين

"مقاربة نظرية"

مقدمة حول المنظورين العلمي والدّيني

إنّ ديناميكية الدّفع لتطوير العلاقة المنهجية العلمية، والفكر الفلسفي، الذي كان سبباً في انطلاقة الثّورة العلمية، والصّناعية في أوروبا وأمريكا، من خلال توظيف المنهجية العلمية التي ميّزت العصر الحديث، هذه الدّيناميكية التي لا تقبل الاستثناء، على اعتبار أن المنهج العلمي من أبرز سماته أنه قابلٌ للتعميم، لذلك إن مجتمعنا فوجئ بهذه الحداثة، وما زلنا نجدها تستنفر قواه، ويحيط نفسه بجدار دفاعي حيالها، لأنّه غير مهيأ وغير قادر بعد على التّوفيق بين العلم والدّين، كما يتبدى أمامنا، لذا اقتصر خياره على أخذ التكنولوجيا عن مجتمعات الحداثة، متجاهلاً الفكر العلمي الّذي أنتجها.

إن آليّة الفصل بين الدّين وأجهزة الدّولة في أوروبا مثلاً، لم تنشأ نتيجة قرار سياسيّ، أو نتيجة ثورة تلغي القديم دفعة واحدة، فقد حصل ذلك في أوروبا، نتيجة تجارب لنيل الحرّيّة الفكرية، وحريّة العيش وفق قانون جامع للعدالة الاجتماعية، يتساوى جميع أبناء البلاد أمامه.

إذ تعدّ التّجارب الأوروبية في سبيل عيش الحريّة، والتي قاومت هيمنة الدّين المؤسّس، قبل أن تتحوّل العلمانيّة إلى واقع تشريعيّ، إلى جانب الحراك الفكري المطالب بالفصل العلمانيّ، تجربة جديرة بالمقارنة والاقتداء، كونها جمعت بين تجارب وأفعال فرديّة، إضافة للأفعال الشّعبية المقاومة، فكان لذلك أثره المهم الذي

كان له الأثر الأكبر في تسريع الإصلاحات العلمانيّة، فتمت تبعاً لذلك علمنة المدارس والمستشفيات، والمحاكم في فرنسا نفسها، بعد جهود عسيرة، وقد انبثق عنها ردود فعل عنيفة أحياناً، من قبل المتديّنين.

وكانت علمنة الإطار العامل والأمكنة، بمنزلة تعويض تدريجي لعمل الرّهبان، بعمل الموظّفين، واستبدال للصّلبان والرّموز الدّينيّة المتمثّلة بتماثيل بآثار فنّيّة دينية...

فمن قراءة لتجربة الشّعوب التي سبقتنا في فصل حياة الدّين عن حياة الواقع السياسي بكل توظيفات الفكر يلاحظ أنّ:

– الأديان بما تدعو إليه من جوهر الإيمان، والتواصل مع الكون الأعظم، فيها من العمق والتّآلف والاتساق ما هو مغري وجاذب، هذا الحال يقتضي منا فحص إمكانيات التّغيير في بلادنا ليبقى التّوازن بمعناه الشّامل، والتّوازن النّفسي بمعناه المحدود، كمنطلق نحو مفهوم إيجابي وموضوعي للصحة النفسية، ومقتضيات التّكيف في حياتنا اليّومية في هذه المنطقة، من حيث إن علم النفس العام، ثم علم النفس المرضي المتصل بمدراس اضطرابات الشخصية، قد بدآ هذه المحاولة بجدٍ ومثابرة، حين تخطى الأول الدوافع الأولية، إلى الدّوافع البعدية في تكامل متصل، وتخطى الثّاني محدودية الذات إلى شمولية الوجود، من حيث إن: الإنسان المعاصر في حاجة الى الإيمان ليكتمل وجوده، وبالتالي تخف صراعاته الداخلية. هذه حقيقة ما انتهت إليه المدارس الحديثة الثائرة في العلوم النفسية، وهي حقيقة قديمة، ولكن إعادة اكتشافها في مجال الطّب النّفسي، والمرض النّفسي خليق بأن يذكرنا، بما نسينا ويوجهنا لما ينبغي.

بذلك نجد أنه لا يمكن للمرء، أن يحصل على المعرفة، إلا بعد أن يتعلم كيف يفكّر؟

لذا تغدو المهمة الجلية للدّور الثّقافي في مجتمعنا العربي، متمثلةً في العمل على تطوير الذّهنية الفكرية، التي تعمل على تحييد العلم عن الدّين، وتجعل

التّعايش ممكناً بدلاً مما هو سائد، كوننا نجد الصّراع المعلن ما بين العلمانية والدين، فالعلم يلغي الدّين في بلادنا، والعكس صحيح، وذلك عن طريق العنف الممارس بأشكال وصور مختلفة من قبل جماعات تحارب وتفرض سيرتها باسم الدّين، فهذا الانقسام في الخطاب لا بدّ أن يستدعي التّأويل، بغية إيجاد مخرج مناسب للاتصال بالآخر، فإذا كان مغلقاً يؤدي حتماً إلى إلغاء الآخر، من هنا يأتي الدّور الفاعل بما هو ملقى علينا، بأن نجد مخرجاً للخروج بمجتمعنا الذي يواجه، ومنذ فترة بعيدة، أزمة وفوضى سياسية وعامة اشتدت رحالها في السنيين الأخيرة، مما كان له العديد من الانعكاسات على المستوى النّفسي والاجتماعي، ويمكن تمثيلها بما يلي:

حالة العجز، والاستسلام لتطبيقات العقائد أو المبادئ الجاهزة، بدلاً من البحث والاستدلال، هذان المظهران اللذان لم يعدّ لهما فعالية في الحياة العصرية مثلما كان سائداً في السّابق، وبذلك يكون المطلوب هو التّغيير، وليس التّعاطي مع الأمور الحياتية الجادة بالسّلبية، أو التّحايل على هذا الواقع الجديد.

وهذا التّغيير يفترض به أن يطال البنية الاجتماعية والذاتية، حتى لو لم يكن مهيأ لمجتمعاتنا، وبالتّالي مواطنينا. وتبعاً لهذا التّفسير، ما نجده من ردّات الفعل، التي ما زالت متفاوتة في المجتمعات العربية تجاه قضايا مختلفة، ولاسيما القضايا الكبيرة التي أُثيرت في السّنوات الأخيرة في حراك الشّارع العربي، فمثلاً نجد على سبيل المثال أن الإساءة للإسلام، والرّسول الكريم، حركت الكثيرين بشكل اندفاعي، بعيداً عن الرّدود المدروسة العقلانية، لإبراز الوجه الحقيقي للإسلام ورسول المسلمين الكريم، بل أتى الرّد عنيفاً وتهجمياً، وهذا ما وجدناه معلناً لدى الدّعاة الإسلاميين، ولاسيما الدّعاة السّلفيين المنادين، بالدّعوة للسّلف الصّالح، أو استباحة العنف لمحاربة الحريّة والانفتاح، كردّة فعل على التّناول للمعتقد الدّيني الثّابت والرّاسخ.

لأجل ذلك نجد أنّهم يحاربون الاتجاهات الدّاعية للدّيمقراطية، وإفراغها من

مضمونها من خلال إبرازها وتحويلها فيما بعد إلى خلافة إسلامية متعصبة كالخلافة البيولوجية التي نادى بها "هتلر" ملك الفكر النّازي الإقصائي في التاريخ العالمي الحديث، وتحت صيغة حرية التعبير والاختيار والتفكير، وهذا ما تغذيه الأنظمة الدّيكتاتورية، من خلال تكريس العنف واتباع منهجية الاغتيال السياسي، كبديل عن تداول السلطة الثّقافية والدّينية، كمجال لإثبات الذاتية الفردية التي يكون التّحرك فيها بحرية إثباتاً أو نفياً، رفضاً وقبولاً، شكاً وإيماناً، بما يسهم في تطوير الذات المسلمة أو المتدينة عموماً، وبالتّالي ينعكس تأثير تطوير الذات الفردية في الجماعة... إن الفكر الإصلاحي الإسلامي الحديث، قد واجه بأشكال نقل المفاهيم من حقل ثقافي إلى آخر، فالمفاهيم كالحريّة والدّستور والمصلحة مثلاً، تحولت في الفكر السياسي الحديث، وانفصل الحديث عنها بعيداً عن التراث الديني، إذ أحيلت إلى المجتمع المدني الحديث، بمؤسساته المتخصصة بالنسبة للغرب، لما أراد مفكرونا تأويلها وبحثوا عن مرادف لها لم يجدوا أمامهم غير جهاز مفاهيمي، لم يتخلص من دلالته الدّينية، مما أدى الى اللاتطابق في ترجمة (الدّيمقراطية: الشّورى، نواب الأمة: أهل الحل والعقد، حريّة الفكر: الاجتهاد، الفطرة: الحالة الطّبيعية (أومليل، 1985)).

من هنا يأتي اليأس من دعاة التّدين حول ما يعاش في عالمنا العربي اليوم، وبالتّالي نجد الكثير من السّلوك الذي يخرج عن الدّين بمعنى اللاتدّين.

ولما كان اللاتدين نزعة طبيعيّة في الإنسان كمثل التّدين، فإنّ هذه الثّقافة ترفض الذاتية، كما ترفض الحريّة الشخصية في التعبير باعتناق دين آخر، وباللاتدين تبدو كأنها تجارب من الطّبيعة ذاتها، وكأنها بالتّالي آلة لطمس الحريّة والذاتية والتهامهما.

خصوصاً، وأنّه من الطّبيعي أن يغير الإنسان إيمانه بيسرٍ تماماً، كمثل ما اعتنقه. الحريّة في المعتقد هي جوهر الكائن الإنساني.

حيث التّعلم مستمر وتشكل المفاهيم مستمر، المهم في ذلك المصداقية

والجديّة في التعامل مع ما نعتقد ونؤمن، وفي حال تعددت الأسباب لتجاوز حالة فكريّة أو روحيّة عشناها، يكون ذلك تجربة فكرية خاصة وفرصة للتّأمل، وليس مجالاً لاستدعاء واختبار ذلك العنف اعتباراً من إلغاء الآخر كشخص وكفكر حرّ مختلف.

هذا الصّراع المستمر، والمستفحل بين التّدين واللاتدين، بالمعنى السّلوكي والعملي: التّدين يعادل التّسليم وإيقاف العقل النّقدي، واللاتدين يعادل التفكير الذي لا يهدئ لكون الفكر يعمل بدون استسهال التّسليم، وهذا من منظور التّحليل النّفسي يتصل بمركزية الأب، في حياة الأشخاص في مرحلة التّنشئة النفسية التّربوية الأولى، ومن ثم الخبرات المتتالية مع بدائل الأب من خلال العلاقة مع الضّوابط والقوانين وممثليها في الحياة الاجتماعية التّالية للحياة الأسرية لكلٍّ منا.

إن الانفتاح على عيش مفاهيم عصريّة تهيّئ التّكيف للامتثال لثقافة العصر، هذه الثّقافة المنفلتة من الرّوابط التّقليدية لمرجعيات رمزية تعطي زخماً لإيقاع الحياة المتمثلة بحريّة التعبير، والتفكير وتداول السّلطات...

وعلى اعتبار أنه "باللغة الحرّة يتحقق الوجود"، تلك اللغة القريبة من همّ الناس ووجدانهم وفكرهم، وبدونها يعني لا وجود لهم، فما بين الإنسان والإنسان صراع مميت، إذا لم تدخل اللغة كطرف ثالث، حيث لا وجود للذّات من دون كلام، حيث إن الوجود الإنساني يكمن في صلب اللغة، من كون اللاوعي مرتبطاً بالكلام، وما نجده عندما يتعطل الكلام والانفتاح على فكر الآخر، ليكون التّفهم والقبول هو صلب العيش الآمن، لا من خلال الإلغاء والاستخفاف، اللذين كانا نتيجة المناداة بالحريّة وتطبيقها في بلادنا العربية.

في العصر الحديث، لم تعد الأمور في حياتنا اليومية تلقائيّة، كما لم تعد قائمة على جعل المقدّس على مسافة من الذات الإنسانية، بل أصبحت الأمور تجري وفق رؤى فلسفيّة سياسيّة، كما أصبحت قائمة على جعل الدّين المؤسّس كلّه على مسافة واحدة من النّفوس، بل ومن المؤسّسات الأخرى، ولذلك كانت الحداثة

فقداناً لبداهة التّقليد، وخروجاً عن الدّين وتفكيكاً لمنظوماته، الأمر الذي أدّى من جراء هذا التّفكيك للأديان، إلى نتيجة واقعية بتنا نلمسها والمتجسدة في فقر للمعاني الرمزيّة، والمتجلية بالفراغ القيمي، وهو ما سمّاه "ماكس فيبير" بزوال السّحر من العالم، ويعني به أفول نجم السّحر والدّين باعتبارهما واعدين بالخلاص وانتشار الشعور بالفراغ، ونتيجة تعدّد أنظمة تيسير الوصول إلى المعلومة، وعيش الحقيقة وكأنها بديل للحماية التي كانت تقدّمها الأديان للمؤمنين، حتى لا يحترقوا بنار المقدّس، وكذلك بآثار زعزعتها التي طورّتها الحداثة بصورة بارزة.

من هنا يبرز الفهم الإنساني الجديد نحو الامتداد الوجودي للانتماء، لسدّ الفراغ المطبق في عالم اليوم، من خلال مثيراته التي لا حصر لها إن شئنا الحصر.

التّباين ما بين المعرفة والحقيقة

إنّ المعرفة لا يمكن أن تسدل السّتار على ذاتها بقدر ما هي نتيجة انقسام، لتبرز الذات بشطريها العلمي والفكري، اللذّين كانا وراء هذا الإنتاج التّكنولوجي الذي بهر العالم الإنساني، على امتداد كوكب الأرض، أي بمعنى أكثر تجديداً بسبب الرّغبة بالموضوع الأولي /objet a/، ووفقاً لرأي العلامّة المصريّ "مصطفى محمود": الدّين الحق لا يناقض العلم لأن الدّين الحق هو منتهى العلم...

فنظام الكون لم يرتعد أمام منظار جاليليو... وإنما الذّي ارتعد هو نظام الكهنوت.

ومن الخطير هنا ما حصل من مقابلة المعرفة العلمية ووضعها مكان المعرفة الدّينية، حيث يكون الإجراء هذا إجراء محظور، كما هو حقل معرفة بالغيب، وانتزاع لمساحة من المعرفة الإلهية، وهذا مما لا يقدر أن يتحمله عقل بشري في بلادنا ولا في سواها. فمن تجارب الشّعوب، ورصد الفلاسفة والمفكرين لذلك، من خلال إيضاح الأجواء العامة، ومحل الفكر وأعماله في انقلاب التّوجهات

على ما هو سائد في حياة الشّعوب لقرون، وهنا الإشارة إلى مسيرة الأوروبيين مع امتثال الأنظمة الدّيمقراطية في بلادهم... وخلاصة ملاحظات الفيلسوف المادي الرائد "هيغل" حول عمل الفكر وموضع اللغة من ذلك...

يسّجل "هيغل" أن الفكر هو عملية إنتاجية واقعية، لا تعبر عن نفسها في اللغة فحسب، بل في تغيير الأشياء وصنع الأحداث أيضاً، أي في خلق الثّقافة الرّوحية المتجسدة مادياً، فالمدن بمنازلها وصروحها فكر متجسد في الحجر، والآلات فكر متجسد في المعدن والمؤسسات الاجتماعية والقانونية والسياسية، هي الفكر في أشكال أخرى.

كما أنّ الفكر يتحقق، ويتموضع (يأخذ موضوعاته) من خلال الفعل في مادة حسيّة، والممارسة هي عملية تحويل الأشياء والأحداث وفق مفهوم، ووفق خطة، فتاريخ الحضارة على العموم ما هو إلّا تجلٍّ خارجي لقوة الفكر بما يتصل بفهم الإنسان، وخططه وغاياته وآماله.

إنّ السّعي للمعرفة بالحقيقة يتجلى دوماً عبر المعرفة العميقة للنّفس الإنسانية، كون النّفس الإنسانية لها تجليان:

الأول: التعبير عن النّفس عبر العقل.

والثاني: التعبير عن النّفس عبر الوجدان التي تتحرك بها الحياة. وما بين النّظرة الدّينية والنّظرة العلمية للنّفس الإنسانية، نجد أن النّظرة الدّينية التي تتمثل بالعفوية والتي تسيّر شعباً ما، وتدّير يومياته، وتكفل له المرجعية التي تؤطره، وكل عملية تقييم من خلال تجمع عناصر كل قيمة معنوية، والذي ربما يتم باحتضار البنية المعرفية التي تقع تحت تأثير مبدأي الشّدة واللين، الأمر الذّي يعني أنه لا وظيفة لهذه البنية وذلك، أنه ما من شدّة إلّا تمت مداورتها، وما من لين إلّا وتم استنزافه، على أن الذّهنية الفاعلة، هي تلك التي تجد لكل مقام مقال، فالعملية معقّدة، وهي لذلك غير سهلة، فإذا كان التّغيير الدائم، قدر المجتمعات إلّا أن بعض المجتمعات تنحرف عن طريق التّغيير، كلما دقّت أبوابه وذلك بسبب عدم

وضوح خطته، وضياع الإجابات عن الأسئلة المطروحة بماذا، ولماذا ومتى وكيف...

ولما كان التّغيير هو محض قرار متخذ، سليمٌ ومقبول من المجتمع، ومن أن القبول لا يمكن أن يسبق الوعي، بما يتم القبول به بمعنى أدق المتمثل بوعي الواقع الذي يجعلنا نقبل خيارات محددة في التّعاطي مع متغيرات الزّمان، وفرض تداعيات الموقف الراهن.

وبذلك إن لم تكن لدينا ثقافة وأفكار متعمقة حول هذه الثّقافة، التي نتمثلها بأفضل ما يمكن أن نفكر به ونعرف، سيبقى لدينا فوضى سياسية واجتماعية، وسيكون لدينا في النّتيجة مجتمع دون قانون، ومن تجارب الشّعوب على ذلك أضع "تجربة الهند في ظل الاستعمار البريطاني لها" كمثال للمقاربة، فمن خلال تلك الأفكار التي خرجت من سياق واقع الهند وفلسفتهم الثقافية أثناء حكم الاستعمار البريطاني لها في القرن التّاسع عشر، استطاع الهنود تحرير بلادهم وانتصار قيمهم.

العمل السياسي يتطلب حركة وكلمة وصوتاً وانفعالاً وتفكيراً حراً مباشراً، والبنية الذّهنية الرّاهنة لشعوبنا هي نقيض ذلك تماماً، حيث إنّ العمل السياسي يتطلب قناعة، ونقداً حراً ذاتياً وإرجاع أثر للآخر، مما يعني نقداً له واللحظة التاريخية الرّاهنة هي: نقيض ذلك تماماً بموجب الذّهنية السّائدة ومفاعليها، هنا يجب التّصرف مع المنطق الزمني والرّوحي بشكل تصالحي، والبناء عليه، حيث إن العمل السياسي، لا يقوم على مجموعة من المتظاهرين في الشّارع، أو إصدار بيان لمجموعة هنا أو هناك ترفض الواقع القائم وتندد به، العمل السياسي قوة ضاغطة بأطروحات وخيارات عملية...

الحرب كانت قائمة في البلد، ومسار السّياسة قائم من خلال الابتعاد عن واقع الحال على الأرض، وسياسة التّشكيك، وبث الخوف من الآخر المختلف كعدو أرعن، ومن كل أطراف الصّراع على بلدنا، وبهذا النّهج السياسي وجدنا أن السّياسة، هي استمرار للحرب يفصلهما عن بعضهما فاصل بسيط، هو بمنزلة

الحائط النّفسي، حائط عازل مبني على الوهم، بحيث إن تقابلا، لا يمكن الاستمرار مطلقاً بهما معاً، لأنه حينها تعاش المواجهة مع الواقع بدلاً من الهروب منه، والتّسامي فوقه.

فإن حصل التّقابل بين مجريات الحرب والنّهج السياسي، عندها لا بدّ أن يحصل الكفّ عن الفعل والتّفكير بالتّدبر.

من هنا نجد أن السّياسة في العالم المتأخّر حضارياً، لا تمارس إلّا بسطوة القوّة، لتكون بذلك استمراراً لغياب العقل النّقدي، الذي هدفه الأساس إقامة العدالة، وطرد الأشرار، كون هذا الهدف ينطق بالحقيقة المتكلمة التي تعدّ مطلباً مستمراً في وجود الإنسان المتكلم عامة، لذا حبس الكلمات وكبتها بات من أهم الأدوات السياسية لتعزيز أي نظام للحكم في هذه البلاد.

نجد أنه رغم اعتراف الكثيرين بهذه الحالة، إلّا أنّهم يفتقدون المعرفة والوسائل التي تؤمن تحرر النّفس من عقالها، لكي تتوجه وتتصالح مع الآخر الكبير.

وهذا الصّمت نتيجة الحنق والخوف مآله الكبت، وهنا يلزم القول: إن اللاوعي متكون عند الإنسان منذ الطفولة انطلاقاً من الكبت الأولي، الذي يعود تاريخه لبدايات دخول الإنسان الأول، في حقل اللغة، أي أن اللغة هي التي تشترط تكوين اللاوعي.

فقد اكتشف "فرويد" عن طريق المرض أن فتح المجال للتّعبير اللغوي من الممكن أن يقود بدوره إلى المكبوت، وفك رباطه مما يحرر الأشخاص المتعبين من أعراض شديدة مستحوذة على تفكيرهم، ويفتح مجالات عديدة لهم، للعمل والإبداع.

الخطاب العلمي للواقع اليوم وصلته بالخطاب الدّيني

تنزع الفئات المشاركة في حوارات عامة حول قضايا تهم المجتمع متعدد الثّقافات إلى عدم التّخاطب بشكل مباشر، لأنها تحدد ماهية الموضوع تبعاً لمعاييرها الخاصة، مما يجعل حريّة التعبير مرتبطة بآراء مغلوطة، وتعابير مهينة للأديان والمجتمعات الدّينية.

وبرغم أن الحوار هو الطّريقة الوحيدة المقبولة أخلاقياً لحل القضايا الخلافية، فإن إمكانيته لا تتوافر دائماً حتى في ديمقراطيات ليبرالية ناضجة، إذ ينزع كل مجتمع إلى تقبل بعض الأمور على عواهنها نظراً لصعوبة تصور أي مجتمع إنساني، يتمتع أفراده بعقل منفتح حول كل القضايا، فيكون حينها للاحتجاج مكانٌ مشروعٌ في هذا المجتمع.

وبالتالي فأية نظرية مدروسة لتداول الرأي السياسي، لا يمكنها الاعتماد على قوة الاقناع فحسب، بل تحتاج إلى تقصي الأحوال التي يكون الاحتجاج فيها مبرراً، والشّكل الذي يجب أن يتخذه، وكيف يمكن دمجه ضمن أطر الحوار العقلاني؟ فالمنطق والجدل مفهومان مرتبطان أحدهما بالآخر، ولكنهما بالوقت نفسه منفصلان منطقياً، والمساواة بينهما خطأ عقلاني مألوف، فكل الحجج تتضمن أو تستند إلى أسباب، وليس العكس هو الصّحيح.

فحينما يُطلب من إحداهن مثلاً ألّا تفعل شيئاً ما لأنّه لا يليق بها أو يتناقض مع تصورها عن ذاتها، نكون بذلك، قد قدمنا لها أسباباً لا حججاً وبراهين.

وكما لا يتعارض العقل والعاطفة كونهما غير منفصلين منطقياً، كذلك الحال بين الحجج والعواطف، فالحجج لها أسباب من نوع معيّن تقتضي صيغة تفكير محددة، إذ يجب توخّي الخلط بينها وبين الأسباب، أو مساواتها بالتفكير ذاته.

فميل المجتمعات التّقليديّة إلى جعل المقدّس على مسافة من الأفراد والمجتمعات له أسباب عديدة من مثل:

– إن المقدّس حسب تشبيه "روجيه كايوا R.Caillois" كالنّار التي تدهش الطّفل وتخيفه، وقد يقترب منها ليحترق المقدّس الذي هو مجال الخطر والممنوع الذي يمكن تعريفه بنقيضه الدّنيويّ، وهو مجال "الاستعمال المشترك، والأفعال التي لا تتطلّب أيّ حيطة، وهي تقع عادة في الهامش الضّيّق والمتاح غالباً للإنسان، حتّى يمارس نشاطه دون إكراه". أما المقدّس حسب "ميرسيا إلياد " فيظهر باعتباره واقعاً، من قبيل آخر مختلف عن كلّ الوقائع، فهناك واقعيّة ما وهناك مبدأ اقتصاد ومجهود

أدنى، وظيفتهما حماية البشر من مطلقات المقدّس وإكراهاته، وواجباته التي قد تتمدّد وتأتي على الحياة العمليّة، لتبدو نار المقدّس تغري بالاحتراق أو الإحراق وبالانخطاف إلى وهم ملتهب متوهّج وراء الواقع، كما إن وظيفة جعل المقدّس بجنانه وناره على مسافة من الأفراد، من خلال ممارسات بعض المجموعات التي اضطلعت بها المؤسّسة الدّينيّة، هو ما يفرض علاقة زمنيّة خاصّة بالطّقوس، من خلال تواتر إيقاعها في حياتنا اليوميّة، ومن خلال كونها تجعل المؤمن يدخل في حالة إحرام ثمّ يخرج منها، وهي الحالة ذاتها التي تفصل بين رجال الدّين وعامّة الناس كي تخلق واسطة بينهم وبين المقدّس، عبر إدارة المقدّس التي نلاحظ أنها تبدي الحذر من التّصوّف كون البعد الصّوفي للمقدس يعطيه معطيات أخلاقية، تضعه في إطار فلسفي واسع، ولأنّ المتصوّف قد يتحوّل إلى فراشة إلهيّة تلقي بنفسها على نار المقدّس، فالمؤمن مهما كان عمق إيمانه، لا يمكن أن يبقى طويلاً في حضرة المقدّس، ولا يمكن أن يبقى طويلاً بلا حاجز يقيه من ناره المتوهّجة...

– إن العيش وفق المعتقدات الدّينية، تجعل الإنسان في حالة رقابة شديدة لذاته قد تُضيّق به الخناق على مجريات تفكيره النّقدي.

وتبعاً للمفكر المصري الدّكتور "فؤاد زكريا" الذي يؤكد على منهج التفكير العلمي وأعمال العقل بقوله: "صحيح أن العقل مازال يجهل الكثير ومازال عاجزاً عن تفسير الكثير، إلا أنه أفضل أداة نملكها كي نعرف عالمنا ونسيطر على مشاكلنا". ويكمل القول: "إن جموع الناس تبحث عادة عن الأسهل والمريح وتتجمع سويّاً، حول الرأي الواحد مثلما تتلاصق أسراب الطيور، لتحمي نفسها من الصقيع، وكلما كان الرأي منتشراً ومألوفاً كان في انتشاره نوعٌ ما من الحماية لصاحبه، إذ يعلم بأنه ليس الوحيد المؤمن به، بل يشعر بدفء الجموع الكبيرة وهي تشاركه إياه، ويطمئن بأنه يستظل تحت سقف الأغلبية.

– أما إحساس المرء بأنه متفرد برأي جديد، وبأنه يطأ أرضاً لم تطأها قدم أخرى من قبل، يتعيّن عليه أن يخوض معركة مع الأغلبية كي يحمي فكرته

الوليدة، فهذا الإحساس لا يقدر عليه إلا القليلون، وعلى يد هؤلاء حقّقت البشرية أعظم إنجازاتها.

وفي البحث حول الصّلة بين الخطاب العلمي والواقعي، يبرز لديّ التّساؤل التّالي: هل المفهوم الحالي للإنسان في العصر الحديث، يتيح لنا التّأكيد على القول: إنّ التّكنولوجيا أصبحت معيار الحقيقة، في مقابل القيم الإنسانية، وبالتّالي ماذا يمثل موضوع اللاوعي، بالنسبة إلى فهم الإنسان؟

وبطرح هذا التّساؤل تبرز إشكالية معينة تتمثل بما يلي وذلك وفقاً لمنظور التّحليل النّفسي:

إن العيش في الواقع وفقاً لمقاربة خطاب العلم، يقوّي فينا نبذ فعالية اللاوعي للتّبشير بضرورة الاستهلاك، ونشر مثال النّجاح الفردي، ومحبة اللذة الفردية، فالكراهية تشترط نبذ وإخراج كل ذاتية خاصة بالآخر.

بكلام أوضح: إنها تعرّي الآخر من هويته الإنسانية لتحجيمه في سمات فارقة بسيطة (اسم، علاقة، وشم، ندبة، حتى لون البشرة...) ليكون العارض النّفسي هو الدّال، وهو الذات بالنسبة لدال آخر، له ارتباط اجتماعي بالإضافة إلى ارتباطه الشّخصي...

وهنا لا يعدو شيئاً يذّكر، ويقف في وجه العمل على محو هذا الاختلاف، حتى لو أدى ذلك إلى إبادة الشّخص الذي يحمله، وإذا كان للشّعور بالذّنب أن يظهر، فلا يحدث ذلك إلّا بعد حين، أي عندما يعلن الشّخص عن نفسه تجاهه كذات، بكل أبعاده الذاتية.

إن مرحلة المرآة تبعاً "لجاك لاكان" تؤسس لأنا جسدي تتداعى مثلها، مثل عقدة أوديب، إذ إن الرّغبة عند الإنسان، وحسب "لاكان" أيضاً تكون في منافسة مطلقة مع الآخر، وأضيف، وتبعاً ل"جاك لاكان" في كل مرة نقترب عند الشّخص من هذا الاغتراب الأساسي، تتولّد عدوانية جذرية، أي الرّغبة في اختفاء الآخر كركيزة لرغبة الذات، والخروج من مأزق مرحلة المرآة لا يكون إلّا بالانفصال عن

الآخر في صورة توسطية تتكشف عبر الكلام وذاتية الأول، حيث يعقب مرحلة المرآة نمو اللغة المنطوقة عند الطفل، هذه اللغة التي تؤسس للاعتراف بالآخر عبر الهدف الجوهري لها، والمتمثل "بالتواصل" بحيث تتحول الغيرة القاتلة عند الطّفل الإنساني عند اكتسابه اللغة.

وكونه يعيشها، حين لا يقدر على التّوضيح عن مأزقه بالكلام، إلى تحويلها إلى تآلف، حسب "حجة القديس أوغسطينوس" حول الرمزية (الاعترافات) الذي ما زلنا نقرأ عبارته الخالدة: «لقد خُلقنا لك يا الله، وقلوبنا ستظل قلقة حتي ترتاح فيك»، وعبارته الشّهيرة القائلة: «لقد كنت أخجل من عدم فعل الشر بوقاحة خالية من الحياء...».

من كل ذلك يبدو لي أن الأمر المهم، والتي تبرز ضرورة الإشارة إليه، أن هذه الذات موجودة في عالم الرموز والمتخيل، أي في عالم اللغة (في اللاوعي)، إذ عندما ينطق الآخرون شحنات الكراهية المركبة، في بنية الشخصية الإنسانية التي هي بجوهرها، تثير الدّافعية للإنجاز، وهي، كما يجد "لاكان"، شرط معيار يبني عليه الإنسان نظام قيمه، يسمح له بإبادة الآخر، حيث يتعلق هذا الأمر بانحراف، وانزلاق في النّظام الرمزي، يقوم على الطّريقة التي يتمكن فيها من تصور رغبته كرغبة للآخر، هذه الرّغبة المقلق تحقيقها لكليهما.

في عام 1966 عقد "جاك لاكان" حلقة دراسية في مشفى "سانت آن" خصصت للمحللين النّفسانيين الشّباب حيث أعلن لهم حينها عن وجود ظاهرة التّمييز، هذا التّمييز الملازم للخطاب العلمي، فقد أشار "لاكان" إلى محدثيه حولها من كونها تنمو على حساب مكانة الفرد، الذي أراد أن يبرزه "جاك لاكان" لتلامذته من المحللين النّفسانيين الشّباب.

من كل ما تقدم أجد أن: وظيفة المقدس في تكوين الرّابطة الاجتماعية يفترض أن يتجه إلى:

– اتجاه تضامني حبي، هو نوع من العهد يعقد بين الأخوة ويجمعهم في

هوية واحدة، تشكل نواة اجتماعية يلتفون حولها ويساندون بعضهم بعضاً في السّراء والضّراء.

– اتجاه معاكس عدائي، تجاه كل ما هو غريب أو دخيل، أو كل من يختلف عنهم، أو يدين الطّوطم نفسه، ذهان هذياني في شكلها المرآتي الذي يستثني الآخر تبعاً لما أشار إليه من قرون "الفارابي" الفيلسوف الإسلامي الشّهير من أن: التّفتيش عن الاعتراف خارج الهو / هو إلغاء الذات.

فهل يتوجب إقامة جدار بين الأنا والآخر، كي نحافظ على الهويّة في الجماعة؟ هذا الأمر الذي كان يؤدي إلى فوضى الحروب العشائرية والقبلية، كونه يستبيح الآخرين في حياتهم وممتلكاتهم.

إذ في نهاية القرن التّاسع عشر، وبداية القرن العشرين، لم يكن ثمّة أي شكّ في أوروبا بأن المكوّن الأكبر للهويّة ليس الدّين البتّة، بل الأمة المعتبرة كظاهرة طبيعية ذات أصالة وموضوعية.

فالمرء هنا فرنسي، إيطالي، ألماني، إنكليزي، إسباني.

وهذا التّحديد للهوية نال إجماع الأوروبيين إلى درجة أن أممهم المجنونة، أقحمت نفسها مرّتين في القرن العشرين في حرب مميتة لم يكن مسرحها أوروبا وحدها، بل المستعمرات أيضاً التي كانت تملّكها منذ القرن السّابع عشر.

ودخل في هاتين الحربين: الولايات المتحدة والإمبراطورية العثمانية بالنسبة إلى الحرب العالمية الأولى (1914–1918)، ودخلت اليابان الحرب العالمية الثانية (1940–1945).

ومنذ نهاية القرن التّاسع عشر، بات مألوفاً اعتبار العالم المتحضر "عالم أوروبا" أنه مكوّن من أمم، سواء أكانت تعمل بحسب النّظام الجمهوري أم الملكيّ، اذ كانت تستند في تحديدها الدّستوري، إلى ما كان يعتبر عوامل طبيعية من مثل (الحدود جغرافية، القواسم اللغويّة، الأصول السّكانية من ذات الأصل الإثني المشترك افتراضاً، وفي مرحلة تالية امتداداً لإرادة العيش المشترك.

أي في تلك الأزمنة العلمانيّة ووفقاً لرأي (د. جورج قرم) الذي أوضحه في كتاب المسألة الدّينية في القرن الحادي والعشرين الذي يعرض فيه أن الدّين لم يكن معتبراً، بوجه عموميّ، كمكوّنٍ معياري للأمّة.

وإذ كانت الحروب الدينيّة المؤلمة، والعنفية في أوروبا بين البروتستانت والكاثوليك، قد أدّت أخيراً إلى التّسامح على الصّعيد الدّيني، وبدوره كان ذلك التّسامح الذي يسمح للكاثوليك، للبروتستانت، واليهود أن يعيشوا كمواطنين في أمّة واحدة، مما أفضى إلى تهميش الدّين والهويّة الدينيّة في تكوين الأمّة.

فإن استعمال كلمة "أمّة" كان قد اكتسب معنىً جديداً، ظهر مع الثّورة الفرنسية، يربط مفهوم الأمة بصوفيّة السّيادة المقدّسة، المخصصة حتى ذلك الحين لملك ذي حقّ إلهيّ – فالأمة غير السّياديّة تبعاً لهذا الاعتبار، هي أمّة مقهورة، ناقصة، مجردّة من حريّتها ومن إنسانيتها.

ولكن الاستعمال الحديث لكلمة أمّة، بمعنى الشّعب السّيادي والسّيد لمصيره، يحتفظ بقوة تعادل قوّة الايمان الدّيني، قوّة الأخلاق المقيدة وشديدة الوطأة على تصرفات الإنسان، التي تعزى عموماً إلى العقيدة والهويّة الدينيّتين.

وهنا تجدر الإشارة إلى أن مفهوم الشّعب ذاته، كان قد ارتدى معاني عدّة ومختلفة على مرّ التاريخ، إذ في الزمن الحالي الشّعب هو المواطنون الذين يجمعهم الوطن، ولهم من الحقوق والواجبات ما هو متشابه، وفق لحكم دستور البلد وقوانينها. وهنا وتبعاً لـ "بودلير" أشير إلى أن الأنا هو الآخر والآخر هو أنا في أدوار اجتماعية عدة في حياتنا، إذ يستطيع كل مواطن تبادل الموقع ويحسّ بكرامة مواطنه لأنها هي هويته، ولأن المآل واحد.

ولكون المفاهيم النفسية لها حدودها وخصوصيتها، فالأنا هو الآخر في منقلب ما، لأن الحاجة إلى هذا الآخر، هي حاجة إلى التّفريق عن الذات، كونه إنساناً متكلماً... وكلامه علامة مسجلة لتفكيره وجيناته وقناعاته...

أما المغالاة اليوم في المواصفات، فإنها تنم عن استقالة المواطن من

مسؤولياته، فالأوضاع اليوم تخلق ذهنية أنانية، لا تفكّر إلّا بتأمين العيش أو الكسب أو الإثراء، حتى لو كان على حساب غيره، وهذا عائد إلى الخوف من المجهول، مما يجعل المواطن يحشر نفسه فقط ضمن الحدود العائلية، مما يؤدي إلى استفحال الغرائز في نفسه، وفي صورة خاصة تبرز غريزة البقاء كرد فعل بدائي، وهذا ما اختبرناه بعمق في الأحداث الأخيرة التي عشناها في سوريا في السّنوات الاخيرة الماضية، وما زلنا نعيشها عندما اشتد العنف من كل حدب وصوب.

فمن هذا العرض يستقيم الطّرح للتّأسيس لفكر المواطنة، كمفهوم جديد للشّعب الواحد على وطن واحد، ضمن أسس التفكير العلمي العقلاني، حيث العقل البشري هو الجامع لأنواتنا كبشر، رغم اختلاف السّمات الشخصية...

التّفكير العلمي وتقاطعاته مع التّفكير الدّيني

انطلاقاً مما يشير إليه مصطلح التفكير العلمي الذي يؤكد على أنه منهج أو طريقة منظمة يمكن استخدامها في حياتنا اليوميّة، وهو تفكيرٌ غير متخصص بموضوع معين، بل يمكن توجيهه في معالجة جميع الموضوعات.

فليس للتّفكير العلمي لغة خاصة به أو مصطلحات معينه، ويقوم على أساس تنظيم الأفكار استناداً إلى عدة مبادئ منطقية وغير منطقية.

والتفكير بمعناه المجرد هو إعمال العقل أو تشغيله في أمر ما، وهو أهم ما يميز الجنس البشري، فالعقل بإجماع الأديان هو مناط التّكليف، كما أننا نجد أن هناك من رَبط وجود الإنسان بقدرته علي التفكير، مثل الفيلسوف الشّهير "ديكارت" من خلال أطروحته الشّهيرة "أنا أفكر إذاً أنا موجود" وهنا لم يقصد ديكارت الوجود المادي بل قصد الوجود الفعلي.

– **التّراكميــة:** تشير إلى الإضافة الجديدة إلى المعرفة، حيث ينطلق الباحث من النقطة التي توصل إليها الباحثون الذين سبقوه، فيصحح أخطاءهم

ويكمل خطواتهم، وقد يبطل معرفة أو نظرية استمرت عقوداً ويقدم معرفة علمية جديدة.

هذه الصّفة تمثل لفظاً يعبّر عن حقيقة تطور العلم، فالعلم سلسلة خبرات وتجارب، وعمل بحثي متواصل في كل المجالات، من الممكن تشبيه العلم ببناء طابقي شاهق، كلما تم بناء طابق ارتفع ليبني الطّابق الذي يعلوه مع ملاحظة أن العلم دائماً يبغي الارتقاء، فمسكنه في العلا أي تبعاً لمثالنا، ليكون الطّابق السّفلي هو القاعدة المنهجية لآليات البناء للأعلى، وبذلك يمثل الطّابق الأسفل بالنسبة له الأساس الجيد الذي تم البناء عليه، والذي لولاه ما كان يصل أي بناء إلى هكذا مستويات شاهقة من العلو والارتفاع... وهذا يوضحه معنى حقائق العلم فالحقائق العلمية ما هي إلا مفردات "نسبية" (مُتغيّرة تبعَاً للزمان والمكان والظّروف المحيطة) التي لا يمكن إطلاق حتمية لها في الكثير من الحالات... اللهم إلا الثّوابت الطّبيعية، وهذه يمكن أن تتغير، والمفاهيم المتكونة عنها باختلاف وتطور الأدوات التي تستخدم في دراستها.

حيث إنّ أيّة نتيجة يصل إليها أي عَالِم، ما هي إلّا نتاج متصل لأفكار، ومحصلة تجارب تمت في عصره وبإمكانيات عصره.

وبالتّالي فإن التّطور الذي يحدث كل يوم في الإمكانيات، والوسائل المتقدمة المستحدثة كلها تقوم بدور مهم في كشف الكثير من الحقائق الجديدة، وتدعيم أو تغيير الكثير من النتائج.

من هنا لا بدّ من التّأكيد على أن العلم دائماً في تقدّم رأسي وأفقي... فهو في تقدم رأسي: لأنه في العمل العلمي دائماً نلمس انجازات مستجدة، تأتي نتائجها لتغير أو تعمق السّابق لها من نتاجات العلم في فروعه المختلفة، وغير المعروفة من قبل، بالوضوح والعمق نفسه وبالتّالي التّخصص الدّقيق هو سمة ملازمة للتّراكمية.

أما التّقدم الأفقي للعلم: فيسعى إلى توسيع المفاهيم وإدراكها إدراكاً شمولياً،

وأكبر الأمثلة على ذلك ما كان يظن من قبل أن فيزياء نيوتن لن يأتي بعدها أحد، وإذا بـ"أنيشتاين" يظهر بالنّسبية، وحالياً بعد ظهور (الفينتو) ثانية على يد العالم المصري الجليل "أحمد زويل" انفتحت الكثير من المجالات التي كانت موصدة الأبواب من قبل، والمستقبل أمامنا لإثبات ذلك، مثلما كان لإضافة الصفر من قبل الخوارزمي باطلاعه على ثقافة الهند التي كان فيها إشارة لذلك، ولكن ليس بالجدّة والوضوح نفسه، إذ يأتي عمل الخوارزمي بكشفه ماهية الصّفر، إلى تعميق وتطوير العمل في البحوث الرّياضية، ليتم تبعاً لكشفه ذاك، تيسير لعمليات الضّرب والمصفوفات.

أما التّفكير الدّيني فهو فِكر أزلي ثابت عماده الثّوابت والتّسليم بحقائق أساس يتمحور حولها الوجود ولا يزيح عنها...

الصّفة الثّانية للتّفكير هي التّنظيم: والمقصود بالتنظيم العمل والتفكير بمنهجية منظمة والبعد عن طرق التفكير "العشوائية" العفوية غير المنضبطة.

حيث إن من أهم صفات التفكير العلمي أنه منظم ومرتبط، ومبنىّ على تخطيط سليم للوصول إلى تقدم في مواجهة المشاهدات، والمشاكل التي تواجه العالم في تحقيق أهدافه، وهذا لا يأتي محض مصادفة، ولكن لا بدّ من بذل الجهد لتحقيقه، والتّدرب عليه والتّخلص من كل عادات التفكير العفوي المشتت.

ويأتي دائماً التّنظيم كسّمة عامة في أي تفكير فمثلاً "التفكير الخُرافي الأسطوري" كان ينظمه مجموعة من الخرافات (غير الملموسة مادياً أو المثبتة علميّاً) عن وجود نظام متعدد الآلهة للكون كلاً مختص عن شيء بذاته.

أما التفكير العلمي والذي يعني: أسلوب، أو طريقة للبحث والمعرفة فتستند إلى منهج يقيم علاقات منظمة بين الظّواهر.

وكذلك حينما جاء التفكير الفلسفي، حاول أن ينظم التّفاعلات الطبيعية واللاهوتية والعقلية، في نظام واحد أسماها (بالكون)، وأضفى عليه صفة، لا يتم إلا بها وهي النّظام.

ثم جاءت الفلسفة الحديثة الأكثر تطوراً معطية نظاماً وأساساً للتّفكير، وهو ما قام به "ديكارت" في الخطوط الأربع في حل المشكلة.

إن العالم يختلف في نظام تفكيره عن التفكير الفلسفي والأسطوري، في كونه يرتكز على منهج ثابت له قواعده وخطته التي تؤدي في النّهاية للوصول لغايته ولهذا المنهج صفات أهمها:

1- الملاحظة المنظمة للظّاهرة المراد دراستها، وبحثها مع التّركيز على الجزيئية المرادة، واستخلاصها من بين المعقدات المحيطة بها.

2- لا تعتمد الملاحظة على الحواس الخاصة بالعالم فقط، بل لا بدّ أن تكون ملاحظة دقيقة باستخدام المفردات الحديثة من أجهزة وتقنيات.

3- التّجريب: حيث توضع الظّواهر الملاحظة في ظروف، يتم التّحكم فيها واختبارها مع تغيير الظّروف وتنوعها، بقدر الإمكان للحصول على قوانين جزيئية تتسم بالثّبات كأساس لفرض قانون علمي، أو إرصان تجربة ناظمة لخبرات لاحقة، يلزمها الإسناد لمعيار وضابط محكّم من خلال التّجريب، يتحصل على ذلك من خلال أنها تتسم بأنها غير مترابطة مع بعضها ومنفصلة، ولكنها ذات دلالة لها مصداقية.

4- ثم يقوم العالم بضم الاستنتاجات والقوانين الجزيئية، المتحصل عليها وربطها معاً للوصول إلى نظريّة ثابتة، مثلما حدث لنيوتن في قانون الجاذبية ولأينشتاين بقانون النّسبية و...

عملية الاستنباط العقلي من النّظريات للحصول على نتائج فرعية، يمكننا نيلها من خلال تعميق النّظرية والاستفادة منها إلى أقصى مدى، وهذا يتطلّب القيام بالعديد من التّجارب مرة تلو أخرى، مثلما كان واقع الحال لِمَا أحدثه أينشتاين، باستنباط مفهوم "النّسبية" من القوانين والنّظريات الجزيئية.

- أن يتسم المنهج بالتّرابط والتّسلسل المنطقي، والتفكير الديني يتقارب من سمات التفكير العلمي بأنه منظم بطقوس وفرائض، وواجبات أخلاقية تعطي معتنقه منهجاً حياتياً منضبطاً مريحاً...

الحتمية السّببية ومفهوم القدر

إن المراد بالعلم ليس الوصول إلى نتيجة فقط، ولكن المراد دوماً هو معرفة السّبب وراء هذه النّتيجة، فلا تكون الظّاهرة مفهومة فهماً صحيحاً، وبالمعنى العلمي إلا بمعرفة أسبابها، من هنا كان تأكيد منهجية التّحليل النّفسي على الحتمية السّببية للإمراضيات في النّفس البشرية...

في المعرفة الطبيعية فقط يمكننا معرفة شيء عن طريق صفاته، وما هو غير معروف بشكل مطلق وأساسي لا يمكن حتى أن يعرف بأنه موجود، ولا يوجد معنى في افتراض وجوده... ديكارت وسبينوزا وليبنتز ولوك، رغم أنهم فعلوا ذلك بتأكيد ضعيف جداً لمفهوم الجوهر كشيء يملك صفات، نجد في الوقت عينه ما رفضه هيوم، وأقصى تدريجياً من علم النّفس والفيزياء بالنسبة للطّريقة التي حدث فيها هذا، والمهم هنا التّطمينات اللاهوتية للعقيدة والصّعوبات الناجمة عن رفضها.

إذا لم تكن قطعة من المادة شيئاً غير حاصل جميع مواصفاتها فإن هذه القطعة تضيع حين تتغير الصّفات، ولن يوجد معنى في القول أن الجسم السّماوي يعد الانبعاث الشيء نفسه الذي كان مرة جسداً أرضياً...

إن هذه الصّعوبة يمكن مطابقتها بالضّبط في الفيزياء الحديثة، إذ إن كل ذرة مع الكتروناتها الحاضرة عرضة لتحولات مفاجئة والالكترونيات التي تظهر بعد التّحول لا يمكن مماثلاتها مع تلك التي ظهرت من قبل، إن كل عملية هي فقط طريقة تجميع ظواهر قابلة للملاحظة، ولا تمتلك نوع الواقعية الذي يتطلبه حفظ الهويّة أثناء التّغيير، فقد كانت نتائج هجر الجوهر أكثر جدية بخصوص الروح أكثر مما هو الأمر بخصوص الجسد، ولقد أظهرت نفسها على أية حال بشكل متدرج جداً لأن أشكالاً متنوعة موهوبة للعقيدة القديمة، اعتقد مرة أنه يمكن الدفاع عنها استبدلت كلمة روح بكلمة ذهن من أجل تجنب التّطمينات اللاهوتية، ثم جاءت كلمة ذات، ولا تزال هذه الكلمة موجودة خصوصاً في التغاير المفترض للذاتي والموضوعي، وبالتّالي يجب أن تقال بعض الكلمات عن الذات هنا...

فإن رأينا بشكل متزامن رجلاً وسمعناه يتحدث، فهل يوجد ذات المعنى لما تكون فيه الأنا التي تشاهد، كنفس الأنا التي تسمع، فحين ندرك أي شيء فمعنى ذلك أنه يوجد علاقة بيني وبين الشّيء: الأنا الذي أدرك هو الذات والشّيء المدرك هو الموضوع. وتبين لسوء الحظ أنه لا يمكن أن نعرف شيئاً عن الذات التي كانت دائماً تدرك أشياء أخرى، إلّا هي لم تستطع أن تدرك نفسها...

لقد أنكر "هيوم" بجرأة وجود شيء كهذه الذات إلّا أن هذا لن يفيد ابداً... إذا لم يكن يوجد ذات فما هو الشّيء الذي كان خالداً؟

ما الذي كان يمتلك إرادة حرة؟ من الذي أذنب على الأرض وعوقب في الجحيم؟

لم يجب "هيوم" عن هذه الأسئلة ولم يرغب بالبحث عن جوانب إلا أن الآخرين أحوجتهم جرأته.

ما نلاحظه في الإدراك هو علاقة ذات ظاهراتية مع موضوع ظاهراتي، ولكن وراءهما كليهما يوجد ذات ظاهراتية مع موضوع ظاهراتي، كذلك ذات حقيقية وشيء في ذاته حقيقي.

لا يمكن أبداً أن يلاحظ أي منهما لماذا نفترض أنهما يوجدان؟

لأن هذا ضروري للدّين والأخلاق، فرغم أننا لا نستطيع عن طريق الوسائل العلمية، أن نعرف أي شيء عن الذات الحقيقية نعرف أنها تمتلك إرادة حرة، تستطيع أن تكون خيّرة أو مذنبة..

فكر "كانط" الذي اعتقد أن العقل المحض لا يستطيع أن يبرهن على وجود الله، بأن العقل العملي يستطيع القيام بذلك، بما أن هذا كان نتيجة ضرورية لما نعرفه حدسيّاً في حقل الأخلاق أن الحقائق الرئيسية التي تستطيع أن تلاحظها لا تمتلك ثنائية كهذه، ولا تقدم أي سبب لاعتبار الأشياء، أو الأشخاص كأي شيء سوى مجموعة من الظواهر...

وجد أن الصّعوبة في دراسة علاقات الرّوح والجسم لا توجد فقط في

المصالحة بين مفهوم الجوهر والفلسفة الحديثة، بل تكمن أيضاً في ما يتعلق بالسببية...

دخل مفهوم العلّة إلى علم اللاهوت بشكل رئيسي متصلاً مع الخطيئة.

وكانت الخطيئة من صفات الإرادة، وكانت الإرادة علة العقل، لكن الإرادة لا تستطيع بنفسها أن تكون دائماً نتيجة علل سابقة، حتى لو كانت فسوف لن نكون مسؤولين عن أفعالنا، وبالتالي من أجل حماية مفهوم الخطيئة، كان من الضروري أن تكون الإرادة على الأقل أحياناً غير معلولة بعلة ذهنية.

وعلاقات الذهن والجسد أصبحت من الظّواهر التي من الصعب جداً تأكيد الفرضيات حولها مع مرور الزمن...

نجمت الصّعوبة الأولى من خلال اكتشاف قوانين الميكانيكا إن استطعت أن ترى إحدى السّاعتين وعرفت عن طريق دقتها فقط، ستظن أن التي رأيتها هي التي دقت... هذا دليل على افتراض وجود تراسل تام بين حالات الجسم وحالات الذّهن في مجال علم وظيفة الأعضاء البشرية، ولجأ الذين كرهوا المادية إما إلى اللغز أو إلى القوة الحيوية...

العمل الذي أنجز في علم الأجنة وفي الكيمياء الحيوية، وفي الإنتاج الصّناعي للمركبات العضوية يجعل من المرجح كثيراً جداً أن خصائص مادة حيّة يمكن أن تشرح بشكل كامل كيميائياً وفيزيائياً.

وبالتالي نظرية التّطور جعلت من المستحيل بالطبع افتراض أن المبادئ القابلة للتّطبيق على الأجسام الحيوانية غير قابلة للتّطبيق على الكائنات البشرية...

علم النّفس ونظرية الإرادة، كان واضحاً دوماً من خلالها، أن كثيراً وربما معظم أفعالنا الاختيارية لها علّ، إلّا أنّ الفلاسفة الأرثوذكس أكّدوا أن هذه العلل على عكس الموجودة في العالم المادي، لا تُوجب تحتيم تأثيراتها، وأكدوا أنه من الممكن دائماً مقاومة الرغبات الأكثر قوة بفعل الإرادة المحض، وهكذا فحين يرشدنا الهوى، لا تكون أفعالنا حرة بما أنها تمتلك عللاً. ولكن بسبب وجود مقدرة

تدعى أحياناً العقل، وأحياناً الضمير والتي حين نتبع إرشادها تمنحنا الحرية الحقيقية...

إن الحرية الحقيقية كتعارض مع النزوة حددت بطاعة القانون الأخلاقي، وقام الهيغليون بخطوة إضافية وحددوا القانون الأخلاقي بقانون الدولة، بحيث أصبحت الحريّة الحقة هي طاعة الشّرطة، ولقد أحبت الحكومات هذه العقيدة كثيراً...

كما أن إدراكنا للأشياء عائد إلى عمليات معقدة تنتقل عبر الأعصاب إلى الدماغ، إن مسألة الوعي عائد إلى عمليات معقدة تنتقل عبر الأعصاب إلى الدماغ، إن مسألة الوعيّ هي بالأحرى أكثر صعوبة، فنحن نقول إننا واعون، إلّا أن القضبان الحديدية والأحجار ليست واعية...

كما أننا نقول إننا واعون حين نكون مستيقظين بيد أننا لسنا كذلك أثناء النوم، وبالتأكيد نعني شيئاً ما حين نقول هذا ونعني صحيحاً شيئاً آخر، ولكن أن نعبر لحين ما هو هذا الشيء الصحيح... فتلك مسألة صعبة وتتطلّب تغييراً للغة.

حين نقول نحن واعون فإننا نعني شيئين نعني من ناحية أولى أننا نتفاعل بطريقة معينة مع بيئتنا ومن ناحية أخرى نبدو أننا نعثر لدى النظر في الداخل على نوعية ما في أفكارنا ومشاعرنا لا نجدها في الأشياء غير العاقلة...

أما بالنسبة لتفاعلنا مع البيئة فإن هذا يتألف من كوننا واعيين لشيء ما.

إن الجزء الأكثر أهمية من مفهوم الإدراك يتعلق بما يُكتشف عن طريق الاستبطان، فلا نستجيب لأشياء خارجية فحسب بل نعرف أننا نستجيب.

نعتقد أن الحجر لا يعرف حين يستجيب، لأنه اذا كان يعرف فهو يملك وعياً بذلك، الفرق في التحليل هو فرق درجة من المعرفة بالإضافة إلى الرؤية...

فحقائق الفيزياء علنية بمعنى أنها مرئية للجميع، بينما حقائق علم النفس خاصة كوننا نحصل عليها من خلال الاستبطان وهذا فارق جوهري...

وعندما تفحص حقائق الفيزياء عن كثب سيتبين أنها باطنية كحقائق علم النفس.

الفيزياء تهتم بالعلاقات السّببية خارج الدّماغ، ويهتم علم النّفس بالعلاقات السّببية خارج الدّماغ، مما يؤدي إلى مسلمات الفيزياء وعلم النّفس وهي حوادث تحصل في الدّماغ وتمتلك سلسلة من الأسباب الخارجية تستقصيها الفيزياء وسلسلة من المؤثرات الداخلية كالذّكريات والعادات يستقصيها علم النّفس، إلّا أنّه لا يوجد دليل على أي فرق أساسي بين مقومات العالم الجسدي والسيكولوجي.

إذ الروح والجسد لم يستطيعا العثور على مكان في العلم الحديث، ويبقى علينا التّحقق حول التّأثير الذي تركته المبادئ الحديثة في علم وظائف الأعضاء، وعلم النّفس المرضي على مصداقية الإيمان الأرثوذكسي بالخلود...

إن أهواءنا الأكثر وحشية تتخذ هذه الأيام طابعاً سياسياً، وليس لاهوتياً، إنها حقيقة مثيرة للفضول، على حين أصبح الإيمان بالجحيم أقل تحديداً، كما جاء مؤخراً على لسان بابا الفاتيكان وفقد الإيمان بالفردوس حيويته، رغم أن الفردوس جزء معترف به في الدّيانات السّماوية...

وللبحث العلمي دائماً أهداف ينبغي التيقن منها أو تنسيقها ومن هذه الأهداف:

الهدف الأول: هو إرضاء نزعة المعرفة وحبّ الاستطلاع لدى الإنسان، إذ لوحظ أنه في بعض الحضارات كان الاهتمام فيها فقط للنّتيجة المتحصلة للمعارف، دون معرفة الأساس النّظري والعلمي الذي تأسست عليها هذه النتائج، مما له دور في إعاقة التّقدم العلمي والحضاري في آخر المطاف.

الهدف الثّاني: معرفة سبب النّتيجة يمكننا من التّحكم فيها، واستخلاص أساس عام يمكننا من الوصول إلى مزيد من النتائج التي تفيد في ظواهر أخرى.

فقد فطن الفلاسفة القدماء إلى أهمية السّبب، ولخص ذلك أرسطو في النّظرية السّببية، وتبعاً لنظرية أرسطو المعرفية كان تطور المنطق كمجال للفكر الفلسفي، وتوسيع النّظر لكل التّفاصيل للظواهر العديدة الاجتماعية منها والطّبيعية، وقدر أرجعت أنواع المسببات إلى أربعة: سبب مادي، سبب صوري، سبب فاعل،

سبب نمائي، وإذا طبقنا هذا على صناعة السّرير مثلاً، فإننا نجد أن أسبابه الأربعة:

1- سبب مادي: الخشب وهو في صنع السرير.

2- سبب صوري: الشكل المصمم عليه ودوره.

3- سبب فاعل: النّجار ودوره في عمله هذا.

4- سبب نمائي: أسباب النّوم (على سبيل المثال) هي التي أدت العملية أي أن السّرير له أربعة أسباب مختلفة تجمعت مع بعضها للوصول إليه وإنتاجه.

وإن كان أهمها هو الغاية من وجوده، إذ إن الحاجة إليه كانت أهم الأسباب في وجوده في كثير من الأحيان.

وقد قام العلم الحديث بتوسيع فكرة "السّببية"، فكل ظاهرة لا تتوقف على سبب واحد بل مجموعة من الأسباب المعقدة، التي تتداخل فيما بينها مؤدية للنتيجة.

- الشّمولية:

إن من أهم ما يميز المعرفة العلمية أنها تكون شاملة أي قابلة للتعميم على جميع الأمثلة الظّاهرة المشابهة، بمعنى أن العلوم متصلة، علم الكون والعلم الكوانتي والعلم بالفيزياء والعلم بالجسد والنّفس، فمثلاً: عند تفسير سقوط جسم ثقيل من أعلى إلى الأرض، كان في البداية ظاهرة سقوط تفاحة من أعلى شجرة، ولكن العالم نظر إلى الموضوع بشمولية أي ليس خاصة بسّقوط الجسم المعني هنا، وبسبب ما يخص سقوط وزن وكتلة بسرعة معينة في زمن معين، كانت نظرية الجاذبية التي تسري على جميع الأجسام السّاقطة أياً كان نوعها، والمعنى الآخر للشّمولية هو عدم رؤية الموضوع من منظور واحد بل النّظر إلى الظّاهرة نظرة شمولية فلم ينظر إلى التّفاحة على شكلها فحسب، بل نظر إليها كوزن وكتلة...إلخ. والتّفكير الدّيني أيضاً فيه من الشّمولية والتّخصيص لكل نواحي الفرد وتفاصيل الحياة والنّظر لكل الموجودات والخلائق...

- الدّقة والتّجريد:

المقصود بالدّقة يعني تحديد الشّيء المراد دراسته، والتعبير عن الظّاهرة المدروسة بدقه دون السّقوط في ألفاظ تحمل أكثر من معنى وأكثر من تفسير. إشكالية "ديكارت" في اللغة من أكبر الأمثلة علي ذلك، أي أنه لا بدّ من تحديد الاصطلاحات واللغة المعبرة تعبيراً علمياً دقيقاً، وهذا أسقط الكثير من العلماء والاستنتاجات في هوة كبيرة من الاحتمالات والأخطاء إلى أن تم استخدام التعبيرات الرياضية التي تحدد الظّاهرة تحديداً علمياً، ولقد أصبح هذا التعبير الرّياضي مهماً، حيث جعل كثيراً يقسمون المراحل العلمية إلى مرحلتين فالمرحلة الأولى: ما قبل العلم هي مرحلة التّقول بألفاظ لغوية عقيمة غير محددة، مثل علوم الطّبيعة في بدايته في العصور الفلسفية الأولى، واستخدام ألفاظ معينة للتّعبير عن الظّواهر الطّبيعية، كبارد وحار وثقيل وخفيف ...إلخ. إلى أن جاء "جاليليو" ودخل بنا مرحلة جديدة في علم الفيزياء "غاليلو" طبق لغة الكم الرياضية للتّعبير عن الظّواهر الطّبيعية... ولما كانت الرياضيات والأرقام الرّياضية تتصف بالتجريد (على سبيل المثال): 2+2=4، لا تعنى شيئاً بذاته ولكنها تعني فقط الإضافة؛ كان اتصاف العلم بالتّجريد، وقد أفاد العلم جداً من عملية تجريده وتحويله إلى أرقام ولغة رقمية.

الضّرورات اللازمة لتقريب الخطابين العلمي والدّيني

بات من ضرورات تحقيق التكيّف في الحياة المعاصرة في بلادنا، ومن كل الناس أقصد (المواطنين)، أن يتم توسيع نظرتهم حيال الانتماء بدءاً من المحيط العائلي، والمذهبي الضيقين إلى الانتماء للوطن بأكمله ومن ثم الانتماء للعالم الممتد بكل نتاجاته وإشكالاته كمصير البشر على كوكبهم.

- فالمغالاة في تقديس الحاكم سوف تكون بمنزلة استهلاك لشيء محبب، فبعد أن يتم استهلاكه يشعر الإنسان أنه ليس في حاجة إليه، كما يفرح الطّفل بلعبته، ثمّ يملّ منها، فالتّقديس يحمل دائماً في طياته دواعي التّدمير، لذلك لا بدّ

من تدوير العلاقة بين الحاكم والنّاس من علاقة بين حاكم ومحكوم إلى علاقة بين حاكم ومواطن.

وأخيراً أنهي إشاراتي هذه بقول الرّسول العربي محمد (ص): «إِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِياءِ وإِنَّ الأَنْبِياءَ لَمْ يُورِّثُوا دِينَاراً وَلا دِرْهَماً، وإِنَّما ورَّثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحظٍّ وَافِرٍ».

إن العصر الحديث يتميز بغياب كل القيم المقدسة الموروثة عن الأجداد، وينعدم وجودها في النّظام الرّمزي القيمي، ويكون العنف أبرز تجلٍ لها باسم المعتقد، أما حان الوقت أن يكون العمل في بلادنا، أن نعيد ما لقيصر لقيصر وما لله لله...

حيث إن الخطاب العلمي يتمايز، ويتميز بصفات ونتائج تتناقض مع القيم الدّينية والمقدسات كونه:

- يلغي الذات الإنسانية لأنه يحولها إلى آلة مُستَهلَكة، ومُستهلِكَة.
- يلغي الرّغبة وموضوعها، وهي التي تميز الإنسان من الحيوان لأنه يختزل الإنسان بحاجاته فقط...
- العلم لا يعطي أي اعتبار للمقدس، فيضعه في خانة المتخيل والمتوهم...

في بلادنا المتأخرة عن العلم نجد أن الدّعوات إلى الجهاد المقدس، والدّعوة من الشّعوب القوية إلى الحروب المحقة، على سبيل المثال لا الحصر كما حصل من دعوة "بوش" لحربه على صدام حسين تحقيقاً للدّيمقراطية الكاذبة في العراق، وتخلصاً من الأسلحة النووية التي يمتلكها صدام حسين على حدّ زعمهم، ولذلك هيّؤوا لِما حصل في حرب الخليج تمهيداً للانقضاض على صدام حسين والنّيل من العراق...

وجليّ القول أن نتذكر وتبعاً أيضا للدّكتور "جورج قرم" أن غزو الأوروبيين للقارة الأمريكية، له صلة وثيقة بتلك الثّورات الدينيّة، فقد كان نابعاً من الاعتقاد شّديد الشيوع بأنّ "أرض ميعاد" جديدة للبلاد المسيحية تقع في ما وراء الأطلسي،

وأنها ستغدو من جهة أخرى أرضاً ستزدهر فيها مختلف الكنائس البروستانتية الهاربة من أوروبا المعرّضة للعنف الدّيني.

ويوضح ريتشارد زنتر، مؤرخ الحياة الدينيّة في الولايات المتحدة : "بالنسبة إلى كثير من الأوروبيين، أن حركة الإصلاح البروتستانتي تفعم آمالهم المبكرّة بأرض ميعاد للقدّيسين. إن إعادة اكتشاف أمريكا في القرن الخامس عشر ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بحركة الدّفع القويّة التي ارتداها الإصلاح البروتستانتي بعد أكثر من عشرين عاماً.

حيث إن كلا الأمرين: 1- اكتشاف أمريكا، 2- الإصلاح البروتستانتي، كلاهما أعلنا حلولاً لتجديد العالم.

أمّا "ميشال هوارد"، المتخصص بتأريخ الحروب، فيبيّن جيداً كيف أن غزو أميركا قد بلور المزج بين البروتستانتية والوطنية والنّهب، التي صارت عملياً مترادفة، بما أن فئة النّبلاء الصّغيرة التي خسرت امتيازاتها المادية بسبب العمل بحصر الإرث لمصلحة الابن البكر على حساب الورثة الآخرين، إنما اندفعت أو دفعت نحو البروتستانتية، نحو البحر والهجرة، ونحو أعمال القرصنة البحرية الهادفة إلى كسر احتكار التّجارة الخارجية من قبل سلطة البابا.

كما كان حال "فاسكو دِ غاما (De Gama) عندما قدم إلى الهند سنة 1498 قدم للبحث عن "المسيحيين والتوابل"، فهناك وعي ملتبس لخطاب الدّين والعلم على امتداد العهود السابقة ومازال...

في محاولة السّعي للإحاطة بالوعي الهويّاتي للقرن الواحد والعشرين، وكذلك تبيان أصوله أجد من المهم توسيع دائرة التأمل ليشمل تأثير الدّين في أنظمة الحكم وبناء الهويّة.

في بلدان عالمنا المتوسطي تبعاً "لجورج قرم" كان للهويّة الدّينية شأن قديماً وحديثاً، فقد كانت منظومات الحكم التي كانت عليها الإمبراطوريات الكبرى في بلاد الرافدين، وحتى الإمبراطورية الرومانية، لم تكن مبنية على إيديولوجيا الهويّة الدّينيّة،

إلّا بشكل هامشيّ جداً، فالقول المهم القول: إن التوحيد، خلافاً للوثنية، كان قد أدخل عنصراً قوياً من التصلّب في البناء الهوياتي، منذ أن صار دين دولة.

فمثلاً التعاليم الدينيّة الكبرى في شبه القارة الهندية وفي الشرق الأقصى، هي تعاليم أخلاقية، صوفيّة وناظمة للمجتمع، مثل الكونفوشية والتاويّة أو البوذيّة والفيدية، لكنها تمتزج وتختلط في شتّى الامتزاجات والاختلاطات، تنحلّ ثم تتركبّ على نحو آخر، وبعد قرون عديدة بكثير من السّهولة، أكثر من مفهوم الإله الواحد المحصور بشعب مختار على سبيل المثال، من هنا ندرك ونستطيع تقييم ما وصلت له اليونان اليوم ومكانة الصّين في الاقتصاد العالمي، فالصّينيون واليابانيون وحدهم سيكون لهم أباطرة ناطقون باسم السماء، المصوّرة على أنّها قوّة إلهيّة ناظمة للعالم، من دون أن ينطوي ذلك على مفاهيم الخلاص والوحي الخاصة بالتّوحيد...

وختاماً أريد توكيد قولي حول إشكالية خطابي العلم والدّين بالقول وبالاستئناس والاتفاق مع ما ورد عن "د. جورج قرم" في كتاب المسألة الدينية في القرن الحادي والعشرين: بأن مفهوم الغرب الهوياتي (من هوية) والثقافي معاً، ليس جديداً، بل يمكننا إرجاعه إلى تقسيم الإمبراطورية الرومانية، كما يمكن إرجاعه إلى انشراخ الكنيسة، بين كنيسة شرقية وكنيسة غربية.

غير أنّ الوعي الرائج بهويّة غريبة جاءنا بنحو خاص من الفكر الألماني الفلسفي والسوسيولوجي، وكذلك من أفكار وتأملات فلاسفة عصر التنوير من مثل فلسفة "مونتسكيو" وتأمله في أسباب عظمة الرومان وانحطاطهم.

ولا بدّ أيضاً من الإشارة إلى صرخة الإنذار التي أطلقها الفيلسوف الألماني "أو سوالد شبنغلر" (1880-1936) في كتابه الذي عنونه "انحطاط الغرب".

وبذلك يمكن تثبيت القول أن كلاّ من خطابي الدّين والعلم عليهما ما عليهما، من ملابسات وانتقادات وستبقى مادامت تحرك الإنسان قوى لا واعية تفعل مفعولها، لا يمكن أن نحيّد تأثيرها وهذا هو السرّ من وجهة نظري في شعور الغرب

بالتّفوق علينا وعلى بقية بقاع الأرض كون هذا الغرب الأوروبي وريث أنواع عدة من التراث التي تشكل بدورها تراثاً لا واعياً يوحي بتفوق الدّيار المسيحيّة، وتكريس التقاليد المسمّاة "يهوديّة – مسيحية" وتكريس تفوق العرق الآري...

يشكل المتدينون أغلبية ساحقة في معظم المجتمعات، ومن الصعب رؤية كيف يمكن أن يطلب منهم في النّظام الدّيمقراطي الامتناع عن التّصرف على أساس معتقداتهم الدينية، وأية محاولة من هذا القبيل سوف تؤدي فقط إلى معاداتهم للنّظام السياسي الذي يحرمهم حقهم من التعبير العلني عما يكنون لهم عميق الاحترام والإجلال والإكبار، ولربما يكون للطلب العلماني معنى إذا كان المجتمع علمانياً، أو في طريقه ليصبح كذلك كلياً أو جوهرياً، أو إذا كان الدين لا يهم الناس، أو يمثل لهم اهتماماً هامشياً...

ومختلف استطلاعات الرأي تظهر أنّ الدّين يبقى قوة مهمة في حياة الناس، 99% من أعضاء الكونغرس في الولايات المتحدة يزعمون استشارة معتقداتهم الدينية قبل التّصويت على القضايا المهمة، كما أن العديد من النشطاء الخضر، والمنظمات المناهضة للعنصرية، والحملات المطالبة بحقوق السكان الأصليين، ومحاربة الفقر، وحركات السّلاح ونزع الأسلحة، وحقوق الإنسان والعدالة في العالم، يزعمون أيضاً أنهم يستمدون إلهامهم من معتقداتهم الدينية، لذا لا يجب أن يفاجئنا تدخل الدّين في المجتمع والسّياسة.

بعد أن فقدت الإيديولوجيات العلمانية مثل الشّيوعية وحتى الليبرالية بريقها وزخمها أصبح هناك طلب على طرائق تفكير جديدة، كأن يبحثون عن ضابط أخلاقي في الحياة الشخصية والسياسية، ويستكشفون مصادر جديدة من البواعث الأخلاقية والطاقة والقدرة. إن الإيمان السّابق بقدرة العلم على حل غموض الكون أو حتى على تقديم حلول للمشكلات الاجتماعية والاقتصادية، ضعف وبلغ حداً من الضّعف والانحطاط جعل العلماء يسعون الآن إلى تحقيق التّقارب بين العلم والدّين (547، التّنوع الثّقافي والنّظرية السياسية).

حين طلب "مارتن لوثر كينغ" بالمساواة العرقية على أساس أن البشر كلهم هم عيال الله، لاقى مطلبه قبولاً لدى معظم الأمريكيين الذين أقروه باعتباره قيمة يفرضها دستورهم، ولم يتحول إلى موضوع للجدل السياسي، بل كان وثيق الصلة بالسّياسة، لأنه أشار إلى السّبب الذي يجعل المساواة العرقية أمراً مهماً بالنسبة إلى كينغ، وساعده على حشد الناس الذين يفكرون بهذا الأسلوب.

يحتاج الفراغ الأخلاقي الناتج لبديل يملؤه، من خلال الاستعانة بالحياة المجتمعية لحل مشاكل عديدة، وتصبح الدولة ذاتها إما فارغة جوفاء أو مغالبة في استبدادها ودكتاتوريتها.

فإلى جانب الأسرة والمدرسة والمجتمعات الطّوعية وغيرها من المؤسسات الاجتماعية، يقوم الدين بدور مهم في الحفاظ على حيوية المبادئ الأخلاقية، كما أن حقيقة استخلاص عدد كبير من الأشخاص – بوعي أو بدون وعي– قيمهم الأخلاقية وحبهم للخير من الدين، جميعها عوامل لها دورها في تعزيز دور الدين في الحياة العامة.

يؤدي الدّين أيضاً عدداً من الوظائف العامة المهمة، فهو يرفض مطالب الدولة والاقتصاد بالخضوع لحكم قيمهما الضيقة الخاصة، ويخضعهما لاهتمامات أخلاقية أشد اتساعاً. وهو يشدّد على وحدة الجنس البشري ويحدّ نزعة تحديد المبادئ الأخلاقية في إطار الحدود الإقليمية للدّولة.

في الوقت الذي نعترف فيه بالإسهام القيم للدّين في الحياة السياسية، ينبغي علينا عدم تجاهل تأثيراته الضّارة التي يسلط العلمانيون الضّوء عليها، إذ غالباً ما يكون الدين إن تم العمل استناداً إليه في السياسة استبدادياً ومتغطرساً ودوغمائياً ومؤمناً بصوابيته الأخلاقية المطلقة، فلا يتقبل التسويات.

كما يستثير دوافع قوية وغير عقلانية أحياناً، إذ نظراً لأصوله القديمة عموماً فهو محافظ لحد بعيد، وضيق التفكير وغير حساس تجاه التغيرات في المناخ الاجتماعي، وتطلعات الناس الأخلاقية، كما يضمر تحيزاً ضد المرأة، ونجد في كل

دين عدم تسامح مع الأديان الأخرى وتجاه الانشقاقات الداخلية وتظهر نزعة للعنف مخزيـة أحيانـاً يسـتخدم فيهـا الـدين لتبريـر ممارسـات شـريرة مثـل الـرق، والحـروب الصليبية، ومعاداة السامية، والنبذ الطّبقي والطّائفي.

إن الدين يسمو بأحواله الحسنة ليبلغ أعلى الذرا، وينحط في أسوئها إلى أدنى مراتب القسوة والوحشية.

وبذلك لا يوجد في الحياة البشرية خير صرف نقي، ولا ينبغي علينا رؤية الدين من منظور وردي واعد مبالغ في تفاؤله، أو منظور كئيب كالح مُغال في تشاؤمه وبدلاً من إبعاده عن الحياة السياسية وإبقائه مراقباً مقطباً يتهددها من الخارج، يمكن إيجاد السبل للاستفادة من إسهاماته وتقليص مخاطره.

من خلال إعطاء المؤسسات الدّينية صفة المؤسسات الخيرية على سبيل المثال، كما هو الحال في المجتمعات الليبيرالية كافة، أو المساعدة في إقامة مشاريع صيانة الموارد العامة والطبيعية.

حيث بإدخال رجال الدّين في إطار الاهتمام بمجالات الشأن العام بجعلهم مسؤولين أمام الناس، إذ يخضع بالتالي للانضباط الدّيمقراطي في هذا التكليف والدور الذي يتبوؤه بأن يعد دوماً كوادر أفضل لهذه المهام...

إذ بإدخال تعليم الدّين في المدارس، يمكن للموجهين والاستشاريين التربويين والنفسيين وعلماء الاجتماع أن يقرروا كيفية تدريس الدين.

أما حين لا يشكل جزءاً من المنهاج فسوف يعتمد على عائلاتهم ومنظماتهم الدينية، مما يؤدي لحصرهم وتقييدهم في نطاق دينهم وتكريس الطائفية، فقبول لغة الدين كإحدى اللغات المحترمة للحياة السياسية، يصبح من الجوهري أن يفهم مواطنو المستقبل كيف يفكر الشّخص المتدين؟ ويجادل ويستنتج؟ وأن يكتسبوا على أقل تقدير بعض المعرفة بالتّقاليد الدّينية الرئيسية لمجتمعهم. هذه المعرفة المشتركة بالدين تعادل في أهميتها بالنسبة للمواطنة الواعية أهمية معرفة تاريخ وجغرافيا المجتمع، وترتيباته الدّستورية والسياسية.

وخير مثال قرار فرنسا في إعادة تعليم الدين في مدارسها في ثمانينات القرن الماضي بعد إبعاده لقرون، بدعم كامل من الكنيسة الكاثوليكية ومن قبل هيئات علمانية مثل هيئة التعليم الوطني واتحاد التّعليم الوطني... أما أمريكا فما زالت لا تسمح بتدريس الدين كمادة أكاديمية في المدارس بل نجد المواطنين يتعرفون على دينهم من الكنائس والطّوائف والمذاهب. إذ في الوقت الذي يُرحب فيه بالدين داخل الحياة السياسية، يتوجب التحذير من أخطاره، برغم عدم وجود طريقة سهلة ومضمونة لتفاديها ومنع استغلالها في النّظام الدّيمقراطي...

كأن يطلب من المتدينين احترام مبدأ المساواة في المواطنة وعملية اتخاذ القرار الدّيمقراطي، باعتبارها من الشروط الضرورية للمشاركة السياسية. إذ بمقدور الدين المساهمة في الحياة السياسية، ومن الواجب العثور على الطرق الكفيلة باحترامه، وقبوله والترحيب به في إطارها، بالمقابل ينبغي علينا مطالبة المتدينين بقبول قيود ومحددات النّظام الدّيمقراطي، من خلال إظهار الاحترام الصادق لحرياته الأساسية وخطواته الإجرائية، وإدراك عناء وتعقيد الحياة السياسية عامة، وفي بلادنا خاصة في ظل التّردي السياسي والانفلات الأمني الحاصل... إن تقديرنا لحقيقة أن الدين الذي يبالغ في دينونته، أو يغالي في اقترابه من مراكز السلطة السياسية، بأنه يكون قد قطع شوطاً باتجاه خسارة مكونه الرّوحي وفقدان احترامنا له.

كما أن العلمانية الشّمولية التي تأخذ في اعتبارها مكانة الدّين، توفر أفضل القواعد المؤسسة للارتباط الخلاق بين الدين والحياة السياسية بصورة تعمم الفائدة عليهما معاً... (565، التنوع الثّقافي والنّظرية السياسية).

ولما كان الدّين يستدعي شكلاً محدداً من السّلوك، كون الدّين يشمل الإيمان فعلاً، لكنه لا يقتصر عليه، الأمر الذي يفسر لماذا لا يجب مساواة الاثنين معاً، فهو يضم إلى جانبه الحكم والخيار والقرار.

ومن هنا يأتي المنطق والمسؤولية الشخصية، لذلك لا يعفى المواطنون من أصحاب التفكير الدّيني بدءاً من المناقشة العقلانية لمعتقداتهم وممارساتهم المتصلة بالسّياسة. كذلك الحياة السياسية لا تعترف بوجود حقائق معصومة، بل اعترافها يتجه لتلك القادرة على اقناع مجتمعات المواطنين المحلية بالأسلوب الديمقراطي...